هل هناك ما يمكن ان نسميه ابداعا محليا ، وان كان الجواب بنعم فماهي الخطوط العريضة لهذا الابداع ، وان لم يكن هناك ابداع فماهي الاسباب ، وماهي منطلقات الرؤية التصحيحية للجمود الإبداعي ؟

●● د . فهد العرابي الحارثي

محمد ال
نعم
متفق
لا:

أود ان نفرق اولا بين معيارين للابداع : الابداع المشاع والابداع الاصيل . وفي بساطة فاننا نقصد بالمشاع اجادة احد الاصناف الادبية بحدوده المتفق عليها . ونقصد بالابداع ، الاصيل ، الاختراع او تجاوز الاصناف الادبية في حدودها المتفق عليها . والاصالة الابداعية هنا هي ، التفرد ، والاضافة بكل ابعادها الفنية والشكلية وبكل مضامينها الدلالية والفكرية . وكثيرا ما نخلط مع الأسف بين الاصالة بمعناها التقليدي وهو الارتباط الشديد بمواصفات القديم او السائد ، وبين الاصالة الابداعية التي المحنا الى معناها وهو التفرد والاضافة . وحتى في اللغات الاجنبية - كالفرنسية - هناك اصطلاح دلالي لكل واحد من نوعي الاصالة . واعتقد اننا في الابداع المشاع وفي مجاله الرحب قد استطعنا ان نقدم اشياء كثيرة تستحق التوقف والملاحظة لاسيما في الشعر والقصة والمقالة . ولكن المشكلة الدائمة انما تكمن في الاخلاص الشديد لاحتذاء ، النموذج ، ويستوي في ذلك التقليديون والمجددون او المحافظون والحداثيون . ولبسط هذه الفكرة ضمن مفردات اوسع نقول : ان مشكلة الاديب السعودي - تحديدا - هي انه يخشى المغامرة ويهاب التحدي ، وهو بطبعه يهوى الانقياد والاحترام الشديد للمألوف من التقاليد الادبية . فالتقليديون لهم نماذجهم والحداثيون لهم نماذجهم ايضا ويصعب على الفريقين تجاوز تلك النماذج . فالاولون حرفيون بطبعهم . والآخرون - رغم ما يتظاهرون به من فسحة في الانطلاق - إلا انهم يظلون مأسورين بنماذج مطروحة ومتداولة في الساحة العربية على الاقل . وهذا هو احد جوانب ازمتهم القائمة الآن في الصراع الفوغائي الذي يتعرضون له من خصومهم التقليديين الذين استغلوا هذا الضعف وربما صعدوه وبالغوا كثيرا في التحريض عليهم به . ولهذا فقد وجدوا المجال الرحب في قوليتهم وحصارهم في اطار الاوثان الادبية القائمة . فهم مرة ادونيسيون ، ومرة من زمرة سعيد عقل ، وثالثة سعديون او درويشيون الى آخر ما هنالك من رموز . وهذا قد جرّ عليهم مشكلات هم في اشد الغنى عنها . وقيلت عنهم اشياء صادقة حينا ، ولكن قيلت عنهم اشياء ظالمة ومجحفة في كثير من الاحيان . فلقد استغلت تلك الاوثان الادبية ضدهم ، وذهب خصومهم في هذا مذاهب لا تليق . اذ اخذوا النموذج ثم اسبغوه بكل سلبياته وبكل تشوهاته - لاسيما الايدلوجية - على المبدع الحداثي السعودي . وهذا الاخير هو الذي هيأ لمثل هذا الوضع المحرج الذي يجد نفسه فيه الآن . وذلك لانه لم يحاول قط ان يبلور تقاليده الادبية او اصالته الخاصة ، وظل معيار الابداع هو الاحاطة بانفاس ، النموذج الجاهز ، والاقتداء بها واعتبارها هي القاعدة والمثال . والمبدعون التقليديون - في جانبهم - هم اشد رسوخا في هذه الأزمة ونعني ازمة الاقتداء او الاخلاص للنموذج القائم والسائد فحتى في ظل الاحترام الشديد للاعراف الشكلية في اي صنف من صنوف التعبير هناك مساحة واسعة لخلق الاصالة ، الخاصة ولكن التقليدين اغلبهم طاول عاجزين عن

سلبياته وبكل تشوهاته ـ لاسيما الايديولوجية ـ على الابداع الحداثى السعودى . وهذا الاخير هو الذى هيأ لمثل هذا الوضع الحرج الذى يجد نفسه فيه الآن وذلك لانه لم يحاول قط ان يطور تقاليده الادبية او اصالته الخاصة . وظل معيار الابداع هو الاحالة بانتظام « النموذج الجاهز » والاقتداء به واعتباره هى القاعدة والمثال . والمبدعون التقليديون ـ فى جانبهم ـ هم اشد رسوخا فى هذه الازمة وتعنى ازمة الاقتداء او الاخلاص للنموذج القائم والسائد فحتى فى ظل الاحتراام الشديد للاعراف الشكلية فى اى صنف من صنوف التعبير من القصيدة الى الحكاية . الخاصة ولكن التقليديين انفسهم ظلوا عاجزين عن اجتراح هذه الاصالة الخاصة .. فهم ايضا لهم نماذجهم التى ذابوا فيها وتلاشوا فى مجالها . ابتداء من الشعراء « الفحول » فى عصر بنى امية ومرورا بالبارودى وشوقى وحتى عمر ابى ريشة والاخطل الصغير وبدوى الجبل وغيرهم . وتلك الاصالة الخاصة اعتقد ان شاعرا مثل ايليا ابى ماضى او ابى القاسم الشابى او حتى عبداله البردونى استطاعوا ان يجترحوها لانفسهم وهذا ما عجز عنه شعراؤنا التقليديون او انهم لم يوفقوا فيها كل التوفيق بغض النظر عن الاشارات المريحة جدا فى اشعار المرحوم احمد قنديل او محمد حسن عواد او طاهر الزمخشرى .

ونخلص من هذا الى اننا فى مجال « الابداع المشاع » نتمكن من شروة تستحق المتابعة وربما الاعتداد والاعجاب . اما فى مجال « الابداع الاصيل » فنحن بحق نحتاج الى مراجعة حقيقية لسلوكنا الادبى بكل سلبياته وبكل محاذيره المتعددة . واول ما يمكن ان نفعله لننطلق فى مساحات ارحب هو التخلص من قيود الوثنية الادبية ـ فى بعديها التقليدى والحداثى ـ فنقضى على النماذج الجاهزة ونستنكف عن الخضوع لها لنستطيع فى يوم قادم ان نجترح تقاليدنا الادبية الملائمة لمرحلتنا . ولنستطيع ان نتمكن من اصالتنا الخاصة التى ستجعل منا « اضافة » حقيقية ومتميزة فى ركب الثقافة العربية بعامة .

ولست ادرى لماذا نطرح دائما الشعر حينما يأتى الحديث عن الابداع الادبى ؟ ان ما قلته سابقا ينطبق على جميع الاصناف الادبية التى تسود فى بلادنا كالقصة القصيرة والمقالة وغيرهما .